البطريرك ارميا العمشيتي

بقلم المنوري يوسف العمشيتي المرسل البطريركي

١

على هضبة تعلو عن سطح البحر ١٢٠ متراً تقوم قصبة عمشيت الصغيرة بعدد سكانها الكبيرة برجالها كالطيب الذكر والاثر البطريرك ارميا العمشيتي.

ليس من يجهل من عتلة العلم وأولي العرفان خدمات البطريرك العمشيتي لابناء ملته وغيرهم من اهل البلاد ، فقد ترك له بيننا من طيب الاحدوثة وجميل الذكر ، ما يحلو بفم التاريخ ذكره ، ويردّد بالاعجاب فمُ الدهر شكره.

كثيرون طلبوا اليَّ ان اكتب شيئاً عن هذا الاب المغبوط الذي لم تتصل بنا اخباره بالتفصيل ، ولم نقف على دقائق حياته لنرويها فنكفيها وصفاً وجلاء. لان ما دهم هذه البلاد من حروب واضطرابات ، وتشتت اهلها ورحيلهم من بلاد الى بلاد ، غير طول المدة وقدامة العهد قد افقدنا كثيراً من المخطوطات والاسانيد التاريخية ، ولا سيما في الاساكل البحرية التي غدت قروناً عديدة ميداناً للحروب وللتعديات ، وبنوع اخص في البلدان القريبة من الطريق البحرية كعمشيت وغيرها ومن ثم تبين صعوبة هذا المشروع الذي كلفني بحثاً دقيقاً ومطالعة مؤلفات كثيرة ، حتى توفقت الى تأليف هذه الترجمة معتمداً على بعض مخطوطات واسانيد تاريخية ، ومستنداً الى التقليد وما يرويه الحفداء عن الاجداد ، والى الاستدلالات والاستنتاجات العقلية الى غير ذلك من الادلة.

على اني لا ادّعي العصمة في ما كتبت والمسألة صفحات منسية في مجاهل التاريخ تحتاج الى النقل اكثر منها الى اعمال العقل.

ولد البطريرك ارميا في عمشيت ونشأ وتربى فيها. ولما شبَّ نزع الى الحياة النسكية فشاد في المحل المعروف الآن بدير مار زخيا قلالي ومعابس بمساعدة اخويه داود ويوسف ، واستحبس هناك مدة كعادة عبَّاد ذلك العصر . ثم ما لبث ان انتقل الى دير السيدة في ميفوق . كان معبد مار زخيا هيكلاً فينيقيًا حوله مسيحيو الجيل الرابع الى معبد مسيحي يعلو عن سطح البحر ٥٠ مترًا ، مركزه على شفير وادٍ بين غابة شجراء. وقد عثر المنقبون في هذا المحل على نواويس وقبور منقورة في الصخور وعلى سرج وادوات خزفية وزجاجية.

وفي المخطوطات القديمة التي بين ايدينا ان عيلة عبيد ، التي نشأ منها المترجم ، اهدنية الاصل. اتى بعضها الى عمشيت سنة ١٢٧١ يونانية. وكان لعبيد ثلاثة اولاد: يزبك ، وطربيه ، وطانيوس. وهي فرع من عائلة دويهي ، نزحت في سنة ١٣٠١ الى كفور العربي بسبب ظلم الحكام. وفي سنة ١٣٢١ عادت الى عمشيت . وبيت الكلَّاب هم فرع من اصل مرهج ابن طربيه سكنوا نيحا وايليج في ميفوق. وفي سنة ١٣٣٠ رجعوا الى عمشيت.

اشتهرت اسرة المترجم برجال افاضل ، وعلماء أعلام . ذكر بعضهم حجة المؤرخين ، البطريرك اسطفان الدويهي ، في شجرة عيلته بخط يده ، مما يؤيد ما ذهب اليه الكثيرون بان عيلة عبيد هي فرع من عيلة الدويهي الاهدنية .

كالمطران مخايل عبيد الاهدني الذي تلقى علومه في مدرسة الموارنة في رومية وسيم اسقفاً سنة ١٦٠٠

والمطران يوحنا بن عبيد ، خلف المطران سركيس ابن القس موسى الدويهي سنة ١٥٧٧[1].

والمطران جرجس الاهدني ، سيم اسقفاً سنة ١٦٩٠[2]

---

١) كان يوحنا ورعاً كثير العبادة مشهوراً بنسخ الكتب توفي سنة ١٥٨٦

٢) هو جرجس بن عبيد، بعد ما أكمل سائر العلوم وعمل مجادلة لاهوتية على اسم البابا زخيا العاشر ، خرج من المدرسة في آخر شهر اذار سنة ١٦٨٣ . وفي السنة التي بعدها رسمناه كاهناً في ٧ ت٢ على سيدة الحارة السفلى في اهدن. زار المذكور الاماكن المقدسة. واجتهد على

وكثيرين غيرهم عطروا صفحات التاريخ بعرف فضائلهم وحسن مآثرهم ، لم يذكر الدويهي ترجمة حياتهم مكتفياً بنسبتهم الى امدن.

على ان تستّر هذه البنفسجة بين جدران قلالي مار زخيا في عشيت ، ومحابس سيدة ايليج في ميفوق ، لم تطل مدته حتى نمّ عرفها وعطر الارجاء أرجها. فاجتمع رأيُ الجميع وطلبوا باجماع الكلمة تسقيف الراهب عملاً بالعادة القديمة والحميدة معاً باتخاذ امراء الكنيسة من الجماعة الرهبانية.

ان الله لم يختر عبده ارميا ، ولم يزين قلبه بالمواهب السامية ، الا ليقلده قيادة شعبه ، ويجعله انا، مختارًا ونورًا تستضيء به امّته. فلم يكد الكرسي الانطاكي يترمّل من راعيه الابر البطريرك بطرس الذي نقله الله لدار كرامته سنة ١١٩٩ ، حتى اجتمع الاساقفة واعيان الشعب في دير سيدة ايليج في ميفوق ، وانتخبوه بطريركاً باجماع الكلمة في السنة عينها اي ١١٩٩ ، لا ١١٨٢ — التي زار فيها البطريرك بطرس سلف المشيتي ايريك بطريرك انطاكية اللاتيني ، وافهمه ان الموارنة طائفة كاثوليكية قديمة وطلب اليه ان يُطلع الكرسي الرسولي على خضوعهم وطاعتهم . فاتخذ غويليوم اسقف صور هذا الامر كرجوعهم عن ضلال حتى كتب ما كتب بشأنهم ، ناسباً اليهم انهم اهتدوا الى محجة الايمان القويمة بواسطة ايريك المنوه به. —

وشدّ ما كان سرور الامة براعيها الجديد الذى انتقل من الدور الاول من حياته ، اي دور الاستعداد والتأمل والامل ، الى دور الغيرة والعمل. فخرج من صومعته كما خرج الرسل من علّيتهم ، رسولاً غيوراً عاملاً نشيطاً ، زاد على نسكه وزهده جهاده ضد اعداء الكنيسة والوطن . فكان بالحقيقة بطلاً مغواراً لا يهاب الموت في سبيل الدفاع عن الحقّ . واضاف الى فقره الاختياري الوعظ والتعليم ، فكان يجول المدن والقرايا والدساكر ، ويدخل دور المشاقين والخارجين لينشر بينهم دين الله الحق ويهديهم الى الصراط المستقيم ، دون

درس الكتب اليعية. وتلمذ الاولاد واعتنى بالوعظ حتى انه صار عبرة صالحة يحتذي بوعظه الشرق والغرب وفي ٢٧ آب سنة ١٦٩٠ رفقناه الى مطرانية امدن بدل ابن عمّنا المطران بولس المرحوم وصرّفناه في زيارة الرعايا» (تاريخ الدويهي)

خوف سطوة ، او خشية نفوذ . وقرن الى سذاجة سلوكه وشظف عيشه الدعة والضعة اللتين جذبتا اليه لا قلوب ابنائه فقط ، بل قلوب اعدائه ايضاً .

وبالحقيقة اننا لم نجد بين كبار ذلك العصر رجالاً اشد غيرةً واكثر فضلا من المشيتي الذي ضاء في سماء عصره ككوكب ، لا بالتاج ، بل بالقلنسوة الرهبانية . ولا بالصولجان ، بل بنفوذ كلامه . ولا بارجوانه ، بل بعباءته الخشنة التي اتخذها له في حياته شعاراً وفي ضريحه كفناً . امران كانا موضوع اهتمامه لدن دعاه الله لقيادة شعبه ، ودهنه بالزيت المقدس : ان يحفظ ابناء ملته في اعتقادهم الكاثوليكي اولاً ، وان يدعو المنفصلين عنها للاتحاد معها ثانياً . وقد ذيّل الله مسعاه بالنجح وعقد اماله بالفوز . ومن ثم يُدرك الجميع غيرة هذا البطريرك وحرصه على الخراف الموكولة لعنايته ، فلم يكن يُنسيه منصبه حقيقة دعوته . ولم تكن تُبطره رفعة عرشه فتنسيه صرعة نعشه . ولم تكن تفتح عيناه في الصباح الا لخدمة ربّه واسعاف قريبه بالمساعدات الروحية والمادية . ولا تسير قدماه في النهار الا لزيارة المسجونين وافتقاد المرضى ونشر كلمة الله بين غير المؤمنين . ولا يغلق بابه في المساء ، الا ليخلو بربّه ويستغفره وينال رحمة لشعبه شأن الرعاة الصالحين . فكان بالحقيقة رسولاً شديد الغيرة في امور الدين ، سالكاً في اطاعة الله وسياسة شعبه بكل تيقظ واجتهاد . ولم يكن يذكره الشامسة بعد وفاته في صلوات الرؤساء الكبيرة ويسمّونه قديساً ، الا لما ذاع عنه بين الخاصّ والعام فكان الرأي العام افضل شهادة على قداسة سيرته وعظم فضائله ، كما ذكر ذلك الدويهي في تاريخه جز ٩ ص ٣٧٢ .

ولما كان شديد التعلق بكنيسة رومة ، شرع يحرّض ابناءه على التقرب من عاداتها ورتبها الكنسية . وعلى مناصرة اخوانهم الصليبيين ، وتقديم المساعدات لهم والتجند معهم ضد الاعداء ، كما روى غويليوم الصوري وغيره من مؤرخي عصره . ومذ ذاك الوقت بدأت الكنيسة المارونية تتقرّب من عادات الكنيسة الرومانية كما أيّد ذلك العلامة لامنس في المشرق (١[١٨٩٨] ٥٧) فقال :

« فالموارنة كانوا من قبل المجمع اللبناني المشهور يقرون كثيرة يسمون فى التقرب ما امكن من رومية فى الطقوس الكنسية . وابتدأ هذا التقرب من زمن الصليبيين » .

والمرحوم رشيد الشرتوني قال:

« ان ما اتصف به بطاركة طائفتنا المنبوطين من شدة الغيرة على ازدياد امتهم في الاتحاد مع الكنيسة الرومانية ام جميع الكنائس ومعلمتهن كان يحملهم على الابتعاد عن عوائد كثيرة طقسية وان كانت في نفسها مستحسنة رغبةً في التقرب من الكرسي الرسولي . ولا يخفى على من له إلمام بتاريخ عاداتنا القديمة وما نمارسه اليوم ان هذا الابتعاد قد ابتدأ عندنا منذ عهد رجوع بطريركنا ارميا الممشيتي من رومية عام ١٢١٥ . فان اكليرسنا من ذلك الوقت اخذ يلبس الثياب والحلل الموافقة لثياب وحلل اللاتين ويجتهد في التقرب من الكنيسة الرومانية في كل شيء (منارة الاقداس)

وقد ذكر عن هذا التقرب الكردينال جاك دي فتري (J. de Vitry) مكمّل تاريخ غوليلموس ، والرحالة لودلف دي سوخم (L. de Suchem) على ان حماسة هذا البطريرك وانتصاره للجيوش الصليبيّة ، وشدة تعلّقه بالكنيسة الرومانية ، وادخاله كثيرًا من عاداتها وتقاليدها لكنيسته ، ان هو الّا حجة ناصعة على حسن تديّنه ، وعلى غيرته بتهذيب ملّته على سنن آداب الكنيسة الرومانية ، وعلى محبته نحو اخوانه من ابناء الغرب وانتصاره لهم اسوةً بمن تقدّمه من ابناء امّته رؤساء ومرؤوسين كما ذكر ذلك مؤرخو عصره .

٢

وبينما كان البطريرك ارميا يتفقد كراسي الابرشيات ، ويزور الكنائس ، ويجاهد في اعمال بطريركيّته ، ارسل اليه البابا اينوشنسيوس الثالث رسالةً مؤرخة في ١٣ نيسان سنة ١٢١٣ يدعوه الى حضور المجمع اللاتراني الذي عُقد في ١١ تشرين الثاني سنة ١٢١٥ في كنيسة مار يوحنا في لاتران في رومة ، بواسطة الكردينال بطرس القاصد البابوي [1]

١) هو الكاهن بطرس كردينال كنيسة القديس مارسال ، القاصد الرسولي في الاقطار الشرقية . ارسله البابا اينوشنسيوس الثالث سنة ١٢٠٣ مع الزحفة الصليبية الرابعة (١٢٠٢ — ١٢٠٤) وامام هذا القاصد خضع روم طرابلس للكرسي الرسولي بنوع احتفالي ، وجدّد الموارنة ايضًا خضوعهم . فعدّ البعض هذا الخضوع رجوعًا عن ضلال بان نسبوا ضلال امة الى امة اخرى (دندبني في رحلته الى لبنان سنة ١٥٩٦)

فما كان اعظم سرور البطريرك بهذه الدعوة ، وطالما كان عَلَل النفس بزيارة ضريح القديس بطرس ، وزيارة خليفته الجالس على كرسيه ، الى ان اتاح له الحظ فاخذ يترقب سفينة قاصدة الشواطئ الاوربية ، فاسفرت امالـه عن وجوه الفوز فان مركباً شراعياً رابطاً في ميناء طرابلس كان يقصد العود الى وطنه البندقية ، فاغتنم هذه الفرصة ، وقصد على الفور طرابلس تتقدّمه الجماهير الكثيرة لوداعه . فبعد ان أناب عنه الاسقف تادوروس ، وفوّض اليه تدبير الابرشية ركب وحاشيته السفينة ميمّماً المياه الايطالية . ولم تمرّ على السفينة ايام حتى ألقت مرساها في احد موانى البندقية فنزل منها ، وقصد رومة العظمى سنة ١٢١٣ . وفي الدر المنظوم سنة ١٢١٤ . فـذهب تواً الى القصر البابوي هو وحاشيته ، فاستقباله البابا احسن استقبال وعين له قصراً نزل فيه هو وحاشيته على الرحب والسعة مدة وجوده في رومة . وقد اثنى كثيراً على حسن تديّنه واثبته بطريركاً على كرسي انطاكية ، وأقرّه في كرسي يانوح الذي كان منزل البطاركة وكراسي رؤساء الكهنة القاطنين في دير مار اسيا ، وجبة بشري ، والمنيطرة ، ورشمين وكفرفو ، وعرقه . وجعله مع سائر الكنائس التي في ولايته تحت حماية بطرس الرسول . وبالسلطان الرسولي ثبت له وللذين يخلفونه جميع الفوائد التي كانت له والذين سلفوا قبله على كنيسة انطاكية . واذنه ان يلبس الدرع الكبير في تكريس الكنائس ، وسيامة الكهنة ، وفي سائر الاعياد المأمورة بطاقتها . وان يكون راعياً ومتولياً تدبير الامة المارونية في جميع ما يخص سياستها بالروح والجسد .

وفي سنة ١٢١٥ عقد المجمع اللاتراني فشهده نحو خمسمائة اسقف ، ونواب البطاركة ، وسفراء ملوك اوربة ، ولم يكن يتخلّف عن حضور جلساته البطريرك ارميا باوقاتها . وكانت غاية هذا المجمع النظر في بدعة الالبجازيين واستنقاذ الاراضي المقدسة من غير المؤمنين . ولم يوجد في اعمال هذا المجمع ما يشير الى هذا البطريرك وطائفته انهم تاطخوا بضلال او بدعة ثم رجعوا الى الايمان المستقيم ، بل يشير الى حضوره المجمع وحسن عقيدته .

وفي شهر نيسان من السنة المذكورة ، سيّر البابا الموما اليه الرسل الى الملوك

والامراء ورؤساء البيعة ، وأمرهم بأن يتجهّزوا للسفر لاجل استرجاع الاراضي المقدسة ، ولمزيد غيرته سافر هو نفسه معهم الى صقلية . واما البطريرك ارميا فقد كان امره البابا بان يسافر قبل الجميع لينبه طائفته لكي تتأهّب لمساعدة عساكر الفرنج وارسل صحبته الكردينال غوليلمو لتصديق الامور . ففي اليوم الاول من كانون الثاني سنة ١٢١٥ تهيأ البطريرك للسفر ، وفي اليوم الثاني كُتبت الرسالة البابوية واستلمها ، وودّع البابا وآباء المجمع ، وفي اليوم الثالث ركب البحر .

اقام البطريرك مدة في رومة كان بها موضوع اكرام ومحبة الشعب الروماني من عامة وخاصة الذين كانوا يتسابقون الى التبرّك بلثم يده وطلب صلاته . فقد عظُمَ قدرهُ في نفوسهم ، وارتفعت منزلته في عيونهم لما تجمّل به من الصفات الحسان والخلال الفريدة . وكثيراً ما كانوا يأتونه بالمرضى والاعلّاء ليصلّي عليهم .

وهذا مستهل رسالة البابا اينوشنسيوس الثالث الى البطريرك ارميا التي بها يثبّت كرسي البطريرك في كنيسة سيدة يانوح وكراسي الاساقفة ، ويمنح البطريرك الدرع المقدس ويثبت له عوائد الكنيسة الانطاكية ، ويشير اليه بأن يستعمل حلل التقديس اللاتينية الخ .

اينوشنسيوس الاسقف

عبد عبيد الله

« الى الاخوة المكرمين ارميا البطريرك المقدم والمطارنة والاساقفة والى الابناء الاعزاء رؤساء الاديار والاكليروس والشعب المارونى السلام .

« ان جودة الحكمة الالهية التي لا تفرغ ولا تحصى ولا يعتريها تقلب هي تدبر على الوجه الاكمل وتسوس هذا العالم الزائل وحال جنس البشر الذي يذهب الى التلاشي . . .

« وانت ايها الاخ البطريرك لما كنت سابقاً في مدينة طرابلس مع قوم من مطارنتك اعني يوسف مطران مارابا سيا وثاودورس اسقف كفرفو وجمع كبير من كهنة وجمهور كثير من الخاضعين لك من تلقاء نفوسهم . فامام بعض اساقفة

ورهبان وشمامسة المدينة وشعبها حلفت واياهم عن انفسكم وعمن يتعلق بكم على هيئة الصورة التي بها يتعهد المطارنة بالطاعة للكرسي الرسولي . . .

« ثم اننا نثبت كراسي المطارنة والاساقفة الآتي ذكرهم بسلطاننا الرسولي وناصرهم بالخضوع لكرسي سيدة ياتوح . . . الخ »

« كتب في لاتران في الثاني من كانون الآخر سنة ١٢١٥ » (١

وقد اتحف البابا البطريرك ارميا بعكاز وصليب صدر وتاج وخاتم وبعض حلل وملابس بيعية مما تستعمله الكنيسة الرومانية . اما درع الرئاسة Pallium فكان البابا أرسله للبطريرك سنة ١٢١٣ ، قبل وصوله الى رومة . ولم يحظ به الا بعد رجوعه منها الى جبل لبنان سنة ١٢١٥ .

واما امر الاحتفال الذي جرى للبطريرك ارميا بعد عودته من رومة فكان نادر المثال . ففي شهر اذار سنة ١٢١٥ (٢ . وصل البطريرك الى طرابلس فخف للقائه جمهور كبير من امراء ومقدمين واساقفة وكهنة وعوام ينشدون ويهزجون احتفاء بالبطريرك مصرحين عن اتحادهم بكنيسة رومة وخضوعهم لرؤسائها . وفي حفلة حافلة ألبس القاصد البابوي البطريرك الرداء الحبري ، اي اليباليوم ، بحضرة ٢٥٠ نفساً جددوا الأيمان المحررة بدوام الاتحاد بالكنيسة الرومانية ، فتحقق عندئذ القاصد الرسولي ، ومن شهد هذا الاحتفال من اساقفة ومرسلين وكهنة لاتينيين ، تعلق الشعب الماروني بالكرسي الرسولي وغيرة بطريركه القديس .

(له صلة)

---

١) نقلاً عن تاريخ الطائفة المارونية للبطريرك اسطفان الدوجي ص ٢٦١

٢) قال لاكويان (Le Quien) في حسابنا سنة ١٢١٦ لان المجمع اللاتراني عقد سنة ١٢١٥ وهو سافر في ٣ كانون الآخر .